

التعليم والحالة الاجتماعية

في مصر

للأستاذ اسماعيل مظهر

التقرير قد أقمته ، وقد أكون غلطاً ، بأن نظريات كلايارد ربما تكون قد أسست به إلى نتائج لا يؤيدها الواقع ولا تسندها الحقائق التي يعرفها كثير من المصريين معرفة أولية لا تحتاج إلى نظر علمي ولا إلى استنتاج من مقدمات

هذا إلى أن المالمين الأوربيين إن كانوا قد بحثوا في التعليم المصري كل من ناحية اختصاصه ، فإن بحثهما إنما جاء قاصراً على الدائرة التي عينتها له وزارة المعارف وفي ضوء المعلومات التي زود بها ، وفي الحدود التي رسمت للتعليم في مصر منذ خمسين سنة مضت . فإن كانوا قد أحسا بشيء من النقص ، أو وقع لهما شيء يستحق النقد ، فإنما وقع لهما فيما هو داخل في هذه الحدود أو مشمول بها . فلم ينظرا مثلاً فيما يجب أن يؤدي التعليم في مصر من حاجات الحياة العامة فيها ، وفي علاقة التعليم بالحالات الجديدة التي تكتنف الحياة المصرية في تطورها الحديث . على أن هذا لا ينزل من مكانة ما كتب المالمين الفاضلان أو يقلل من قيمة آرائهما . فإن المصريين أنفسهم أحق بأن يتلمسوا مكان النقص الذي يحسونه في التعليم من ناحية علاقته بالحياة عامة ، وبالحالة الاجتماعية خاصة

ومهما يكن من أمر الباحث الأوربي في الشؤون المصرية ، ومهما يكن من علمه وتمكنه فيه ، فإنه من المتعذر عليه كما قال مستر مان في تقريره أن يلم به إلام المحيط بالحقائق الأساسية التي يحس بها المصريون أنفسهم من غير استعانة بآراء أو نظريات . ذلك بأن لكل أمة إحساساً بما يتورها من نقص لن يفقه الغريب عنها شيئاً من خصائصه إلا بالجدد الشديد وطول التأمل والتفكير . مثل ذلك أن التقريرين اللذين وضعهما المالمين الأوربيان لم يلمسا الحقائق الأولية في حياتنا الاجتماعية وعلاقتها بالتعليم ؛ ذلك في حين أن كل مصري يشعر شعوراً عميقاً بأن عصرنا من عصور التطور الفكري قد آذن بأن تشرق شمسه في سماء مصر ، وأن عصرنا آخر قد أخذ في الأفول . أضف إلى ذلك أننا نشعر بأن حالاتنا الاجتماعية قد أتجهت في تطورها متجهاً إلى على التعليم في مصر عبثاً جديداً لم يشعر به آباؤنا ، وقد نشمر بعض الأحيان بشيء من القلق ، وقد نشمر بأن هذا القلق قد يتضاعف بعض الأحيان حتى ليذهب بالبعض إلى حد اليأس من

قرأت في المهد الأخير تقريرين عن التعليم في مصر كتبهما طلمان استقدمتهما وزارة المعارف لينظر كل منهما في ناحية خاصة من نواحي التعليم ودرجته ، وأفصى كل منهما بآراء فاضحة فيما كلف به من بحث . فكتب مستر مان مقتس المدارس وكليات المعلمين بإدارة المعارف بانجلترا تقريراً مدعماً بالاحصاءات قائضاً بالأفكار والنظريات ، وكتب مسيو كلايارد أستاذ علم النفس في كلية العلوم بجامعة جنيف تقريراً آخر عمد فيه إلى نظريات حديثة في علم النفس والتربية لا نعلم مقدار ما فيها من خطأ أو صواب ، لأن الحكم على مثل هذه الأشياء يجب أن يرجع فيه إلى أهل الاختصاص ، وإن كانت النظرة العاجلة التي ألقيتها على هذا

المصري بسيل من الحفلات والآداب والمواكب الباهرة ، وأن تأسره بمظاهر جودها الوافر ، وأن تنثر عليه ما استطاعت من آيات البهجة والرح ، كل ذلك لكي تكسب ولاده وعرفانه وتأبيده ؛ وقد كانت الخلافة الفاطمية تشعر دائماً أنها لم تكسب كل ولائه وتقديره ، وإن سياستها المذهبية تبث إلى نفسه شيئاً من الوحشة والريب ؛ بيد أنه يجب أن نقول من جهة أخرى إن الدولة الفاطمية كانت بحق دولة البهاء والبذخ الواسع ، وكانت هذه الرسوم والمظاهر الرائعة من بعض مظاهر قوتها وعظمتها وغناها ؛ وكانت هذه الروح الفخمة الباذخة تطبع كل رسومها ومظاهرها ، في القصر وفي الخارج ، وفي السياسة والدين والإدارة ، وفي الحياة العامة والحياة الخاصة ؛ وقد سرت آثار كثيرة من هذه المظاهر والرسوم الفخمة الشائقة إلى كثير من القصور والدول الإسلامية التي تماقت على مصر بمسد الدولة الفاطمية ؛ وقد نلص إلى اليوم في بعض الرسوم والنظم الدينية ، وفي بعض مظاهر أعيادنا ومواسمنا لمحات من آثار البذخ الفاطمي

محمد عبد الله عاز

يعلمون أولادهم ، حتى لقد نجد أن بعض القادرين على التفكير ينظرون نظرة تشاؤم إلى المستقبل القريب ، وإن لهم في ذلك لحقا ، وإن لهم في تشاؤمهم لأسبابا تبرره وحقائق تملأه ، ومن أجل أن نظهر تطور الحالات التي أفضت بنا إلى هذه النتائج ينبغي لنا أن نذكر حقائق خمسة ترجع فيها إلى تاريخنا بعض الشيء :

أولا : حكمت مصر منذ أبعد العصور على نظام تباين الطبقات الاجتماعية ، وعلى أساس الفوارق في الحقوق العامة ؛ غير أن الطبقات أخذت تتقارب حقوقها الطبيعية وتتنق من بينها الفوارق من عهد قريب ، فالكل الآن متساوون أمام القانون ، ولكل مصري حق الانتخاب والحكم من طريق مجلس النواب . فأخذ مظهر وجود طبقتين متبايزتين في الحقوق المدنية يزول شيئا بـشيء ، فلقد كانت مصر القديمة مكونة من ثلاث طبقات هم : الحكام والكهنوت والشعب ؛ ومنذ غزو الاسكندر وحكم البطالسة إلى حكم المماليك حتى بدء الاحتلال الإنجليزي كانت هناك طبقات تختلف حقوقها وامتيازاتها ؛ أما الآن فقد انتفت هذه الفوارق نظريا ، ونقول نظريا لأننا لا نزال نشكو من بعض مساوئها ، بالرغم من أن أصغر فلاح في مكنته أن يقاضى أعظم عين في البلاد ، وأن يأخذ حقه منه إن كان له حق

ثانيا : بالرغم من أن نظام الطبقات المتباينة في الحياة والحقوق هو النظام الذي اتبع في مصر منذ أبعد العصور ، وبالرغم من أن حالة مصر الاجتماعية من خمسين سنة مضت كانت تكفل الاستقلال المادي لطبقتي ذوي الامتيازات والفلاحين معا ؛ بأن تحمل طبقة الفلاحين ، وهي الطبقة العاملة ، العبء كله ، بأن تكن نفسها وتكفي حاجات حكامها بقدر الاستطاعة ، فإن الحالة الجديدة ، حالة التساوى أمام القانون في الحقوق ، قد أحدثت ظاهرة اجتماعية جديدة ، كان سببها أن الفلاح قد خرج من كونه تاملا لا حق له في ملكية الأرض ، إلى رجل حر له حق العمل متى شاء والاتقطاع عنه متى أراد ، وله فوق ذلك حق الملك ، بل نقول إنه انتقل من حامل إقطاعي إلى رجل حر ، فقامت على هذه الحال ظاهرة اجتماعية جديدة

مستقبل آلاف الطلبة الذين يتعلمون اليوم في المدارس ويخرجهم الكليات زراقات كل عام . بل إننا أخذنا نشمر بكل ما شعر به الأستاذ هنري جيمس عند ما قال : إن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة الدوام قوية الأركان في جمعية يكتب على التعلين فيها عبث الفقر والذلة ، لأمر فيه من البعد عن حقائق الطبع البشري بقدر ما في محاولتك بناء هرم يرتكز على رأسه لا على قاعدته من بعد عن حقائق الطبيعة الكونية

واقدر عارى مفكر في أن ذلك الشهور العميق الذي يكتنف تفكير الكثيرين من المصريين إنما له أسبابه النامضة البعيدة عن ادراك الذين لا يفكرون في التعليم إلا بقدر ما يفكرون في أداة تخرج متعلمين ، ولا يزيد خطره في نظرهم عن خطر آلة تخرج أحمدة أو لغافات تبغ في نظر حامل يجهل حقيقة الآلة التي يدبرها ، ولا يعرف عنها إلا أمرين : شكلها الظاهر ، وثمرها الذي يجنيه منها

على أن الثمر الذي أخذنا نجنيه من أداة التعليم عندما قد جدت عليه ظاهرتان جديدتان : الأولى أن طعمه قد أخذ يتغير ، والثاني أن صنفه أخذ ينحط مع كثرة الانتاج . ولا شك في أنهما ظاهرتان يملل بهما كثير من الظواهر الاجتماعية التي تمر علينا في كل يوم صور منها ، وأخصها كثرة الماطلين من التعلين ، والجهد الذي يلقاه المجدون منهم في تحصيل رزقهم الحلال

ولا ريب في أن هذه الظاهرات ترجع إلى أسباب أخذت تتجمع منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ، حتى أفضى بنا التطور إلى الحالة التي نكتنفنا اليوم . ولما كان الفرض الذي أرى إليه من نشر هذه المقالات إنما يتجه إلى وصف العلاقة التي تقوم اليوم بين التعليم والحالة الاجتماعية والمهمة الكبرى الملقاة على عاتق التعليم في تنظيم الحالة الاجتماعية ودرء الأخطار التي قد يتعرض لها المجتمع المصري بقدر ما في مستطاع التعليم أن يدرك منها ، وجب أن أظهر أولا أن أشد الأخطار التي يتعرض لها الكيان الاجتماعي في مصر من ناحية التعليم أن الشاب التعل في مدارسنا العليا يفقد مع التعليم استقلاله الذاتي ، باعتبار قوة لها حقيقة مستقلة عن القوى الأخرى التي تكتنفها . وقد يشمر بذلك الشاب المتعلم ، وقد يشمر به الذين

كفاح المنتج لا كفاح المستغل لكفاح غيره ، رأينا أن التعليم لم يف يلوغ الغاية الأخيرة منه ، ما دمنا نرى أن ابن الفلاح يجبرته الموروثة مستقل في حياته منتج بعمله ، في حين أن المتعلم يفقد مع التعليم استقلاله الذاتي ويتطلع دائماً إلى حياة الركود لا إلى حياة الكفاح التي لم يهيء له تعليمه طريقها الواجب

على أن قليلاً من التأمل في هذه الالامة التي ألمنا فيها بأوجه التطور الاجتماعي الذي انتابنا منذ خمسين سنة خات ، يحمل الفكر على المضي خطوة أخرى في تأملات إذا أحطنا بها نكون قد فرغنا من التهيب لفكرة التي نريد أن تكون الدمامة التي يقوم عليها أساس التعليم في مصر ، فترى ما يأتي :

أولاً : إن طرق التعليم التي عكفنا عليها إلى الآن شطرت الأمة ممسكين : الأول ممسك المعلمين على القواعد الأوربية التي انبعثاها في مدارسنا ، وخرجوا بهذا التعليم عن جو ثقافتنا التقليدية ، فأصبحوا نصف مصريين ؛ والثاني ممسك الفلاحين الذين أبعدناهم عن الثقافة الحديثة ، وحافظنا على ثقافتهم التقليدية فصاروا بذواتهم في القرن العشرين ، وبعقليتهم في مصر الفرعونية

ثانياً : كوناً بهذا طبقتين غير متجانستين ، بل مختلفتين تمام الاختلاف ، بحيث لا تجمع بينهما من رابطة إلا الرابطة الطبقية التي هي رابطة الدم ؛ فكنا في ذلك أشبه بالمستعمر الذي يرغب دائماً في أن يزيد من الصدوع التي تفصل بين طبقات الأمة ، لا أشبه بالمصلح الذي يعمل دائماً على أن يربأ تلك الصدوع ويقرب بين الطبقات حفظاً للتوازن الاجتماعي . ولا شك في أن هذه السياسة تؤدي بطبعها ، وعن غير قصد ، إلى حرب الطبقات التي نحن مقدمون عليها حتماً إذا استمر التعليم على غايجه الحاضرة وأخذت تلك الصدوع والفوارق تزيد عاماً بعد عام

ثالثاً : دليلنا على هذا أن ابن الفلاح إذا أثرت فيه الثقافة الحديثة ، سواء أكان تعليمه في مصر أم في إحدى جامعات أوروبا ، أصبح لا ينشق في جو بلاده نسيم الثقافة التي نشأ فيها ، فتلحظ فيه روح التبرم بأبيه الفلاح وأمه الفلاح ، وتأنس فيه نزعاً قديمة تدفعه دائماً إلى حب المودة إلى الجو الذي نشأ فيه ، نراه قلقاً غير مستقر ، هداماً لا بناءً ، يريد لو نتاح

ثالثاً — هذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة التي قامت على رير الفلاح المصري وعقته من نظام الاقطاع الذي ظل خاضعاً أطوال القرون ، قد قلب آية الحياة الاجتماعية في مصر . فإن لنا الفلاح لم يكن ينقصه شيء ليكون مستقلاً تمام استقلال في حياته إلا قانون يحميه ، ونظام اجتماعي يوجهه ، يشد به أنه يلهما أثر في الحياة ؛ فلما وقع ذلك بالفعل أصبحت الطبقة الدنيا من طبقة الفلاحين المسخرين التي كان عليها أن تحفظ استقلالها استقلال الطبقة التي تعلموها ، سيدة نفسها ، وأصبحت طبقة سلاك وأصحاب الجاه كما كانت في الحالة الأولى عبثاً عليها ، لكن في صورة جديدة ، هي صورة أخذت شكل صراع خفي بين طبقتين

رابعاً — ولقد انحصر مظهر هذا الصراع في طبقة تحررت من قيود النظام الاقطاعي وهي الطبقة المنتجة العاملة يسيدها ، لأصبحت مستقلة بنفسها . وهي طبقة قادرة على الحث والفرس والحصاد في بلاد لن يزرعها غيرها ، ولن ينتفع بها غيرها ؛ فهي مستقلة ما دامت من فوق الأرض التي ينفذها النيل يشرابته المحيية ؛ وهذه الخطوة الجديدة أحدثت ظاهرة أخرى

خامساً — عكفت الطبقة الأخرى ، طبقة أصحاب الجاه على مطلب آخر تنق به النتائج التي تترتب على استقلال الطبقة العاملة ولم نجد من وسيلة أقرب من تعليم أولادها ليكونوا حكام البلاد . ولكن طبقة الفلاحين أخذت تراحم الطبقة الأولى في هذا المضمار ، فأخذ الأثرياء منهم يعلمون أولادهم ليكونوا حكاما فنجحوا . ولكن بعد أن ملئت الحكومة بما تحتاج من حكام وكتبة قام شعور جديد بأن أولاد موظفي الحكومة والأثرياء الذين أخرجوا أولادهم من محيط الفلاحة إلى محيط العلم أقل استقلالاً مع تعلمهم من أبناء الفلاحين الجهلاء . وأصبحنا الآن والموقف بين متعلم عاقل يتطلع إلى مراتب أبيه أو ثروته ليعيش ، وفلاح جاهل لا عمدة له في الحياة إلا خبرته الموروثة في فلاح الأرض وقوة عضلاته وحرانه وفأسه وماشيتته . فهو رجل مستقل تمام الاستقلال في الحياة ، على العكس من المتعلم الماثل . فإذا كانت الغاية من التعليم تخريج رجال مستقلين يكافون في الحياة

أقدر قرية أوربية على ريفنا الجليل وبحيرتنا الفاتنة ، حتى لقد كادت تقوى النزعة الأوربية فينا على وحى النيل نفسه والسبب في هذا أننا كنا خلال الخمسين عاماً الماضية كالمقيد لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، إذ انتزعنا من أرواح ناشئة « مصريتها » ، ولم نترك فيها من المصرية إلا لون البشرة ولقحنهم بالروح « الأوربية » فلم ينبق مصريين كأهل الريف ولم نستطع أن نكون أوربيين كفتيان « بيكادلي سركس »

سادساً — بدأت هذه الحال تؤثر في مرافقنا الحيوية حتى لقد نزعنا إلى القول بأن كل ما هو أوربي جميل ، وكل ما هو مصري رديء ؛ وكل فكرة مصرية لعب ولهو ، وكل فكر أوربية جد ورجولة ؛ وكل فن مصري بُدائي وغير متفر وروح العصر ، وكل فن أوربي بهما كان فيه من بعد وتضاد زفاننا وتقاليدنا المصرية بل ومع آدابنا المرعية والعزة الانسانية ، حضارة وتعدن ؛ وشملت هذه الحال فتياتنا وفتياتنا فأنسنتهم لا تتحرك إلا بكل ما هو أوربي غربي ، وقلوبهم لانهة إلا لكل ما هو بعيد عن المصرية

ولا شبهة في أن المسكرين بتهيان الآن : الأول للعمل م خراب الريف ، والثاني لا حول له ولا قوة ، فسوف ينهزم ليرتد الريف خراباً . وإعنا يخرّب الريف بخراب القلوب التي يجب أن تؤمن بأن الريف هو مصر ، وأن مصر هي الريف ، وأن المد أسواق لذلك الريف لا أقل ولا أكثر . إعنا يخرّب الريف بأ نحب المدينة ونهجر الريف ، فكأننا هجرنا مصر . ولا غرر لنا من هذا إلا بأن نصل ثقافتنا الحديثة بثقافتنا التقليدية فيكون المصري فلاحاً مصرياً روحاً ونزعة وخلقاً ، ثم قاضياً ومحامياً وطبيباً ورجل إدارة من بعد ذلك . يجب أن تكون ما هيئتنا مصرية وأعراضنا أوربية ، لا أن نعكس الآية بأن نعمل أولاً على محو مصريتنا ، فإذا تم لنا ذلك رحنا ننتبه بأننا أتيننا بأهراض أوربية ولقحنا بها ذوات لا ماضى لها ، وبالأحرى لا ماهية لها تلك المقدمات لا بد منها إذا أردنا أن نبحث حاك الاجتماعية من جهة علاقتها بالتعليم . وسنرى في البحوث التالية كيف يمكن أن نستفيد منها

اسماعيل مظهر

له الفرصة ليعود إلى الجو الذي كان فيه ؛ فإذا أهيتته الحيلة ، كما يحدث دائماً ، واضطر إلى البقاء في جو بلاده ، هجر الريف ، صرّبه الأسيل وصرّبه آباءه وأجداده منذ قرون طويلة ومنشأ تقاليده منذ أزمان لا نسميها الذكريات ، ليسكن في مدينة من المدن ، فيفضلها مع عيش الفقر والموز على الريف مع عيش الراحة والهناء ؛ وتراه ينزع إلى البطالة في مدينة دون العمل الذي هو أجدر بحياة الرجولة في الريف . ومن هنا تتكون الطبقات التبرمة بالحياة ، العاملة على الهدم دون الإصلاح ، النزاعة إلى الأفسكار المتطرفة والثورات . أولئك الذين عنان العلامة هنري جيمس في كلمته التي سقناها من قبل

رابعاً : وأنت أيها وليت وجهك رأيت أثر المسكرين المذنين كونهما التعليم المصري ظاهراً جلياً . فأنت تنتزع الولد من حضن أبيه الفلاح وأمه الفلاح ، فكأنك تنزعه من حضن « مصر الفرعونية » ، تنشئه في حضن « مصر الأوربية » ، وتخرجه بعد ذلك قاضياً أو محامياً أو مهندساً أو تاجراً أو رجل إدارة أو غير ذلك ، ولكن بروح أوربية تكسوها ثياب مصرية شفافة ؛ وبالأحرى تخرج رجالاً انبثت صلتهم بتقاليدهم الثقافية القديمة . وأنت في دور العدل وفي التاجر وفي مراكر الأداة وفي عيادة الطبيب ومكتب المهندس ، واقع في كل دقيقة على مظهر من مظاهر التفرقة بين المسكرين . فالفلاح البعيد عن مدينة المدن ، وبالأحرى البعيد عن جو الثقافة الأوربية الذي نشأ فيه القاضي والمحامي والتاجر ومأمور المركز ومعاون الإدارة وطبيب القرية ، يمثل ممسك مصر الفرعونية ؛ أما هؤلاء فأنما يمثلون « مصر الأوربية » ، ولا شك في أن هذا مظهر من مظاهر الانحلال الاجتماعي ، لا يسأل عنه في مصر شيء بقدر ما يسأل التعليم

خامساً : بالرغم من أن التعلم قد نزع بفكره نزعة أبديته عن ثقافة آباءه التقليدية ، فقد أثرت تلك الحال في زواجه وتصوراته ونظراته الفنية في الحياة ، تلك النظرة التي يجب أن تكون مصرية صميعة ، ويجب أن نحافظ عليها تقيّة على سجيئتها لنكون مصريين جديريين بالمصرية ، وكان من نتائج هذا أن التلمين يفضلون